«نجيب محفوظ: الرؤية والأداة»

سليمان فياض

بين الكتب القليلة الهامة التي صدرت في العام الماضي ، كتاب عن « نجيب محفوظ : الرؤية والاداة » للدكتور عبد المحسن طه بدر الاستاذ بآداب جامعة القاهرة . بل انه في تقديري أهم ما صدر من كتب الدراسات النقدية منذ عدة سنوات .

ولا ترجع أهمية هذا الكتاب الى انه عن نجيب محفوظ الذي جرى العرف على تنصيبه عميدا للقصة العربية الحديثة ، فما أكثر ما كتب عن نجيب محفوظ من مقالات ودراسات وكتب ، وما أجري معه من حوارات وأحاديث ، قبل هذا الكتاب . وانما ترجع الاهمية الى ان الدكتور عبد المحسن قد تفادى جهده المزالق التي وقع فيها دارسو أدب نجيب محفوظ على مدى يزيد عن ثلاثين سنة ، والتي ساعدهم نجيب محفوظ نفسه على الوقوع فيها ، بل ان الدكتور عبد المحسن حاول في كتابه الى جانب التنبيه اليها ، مناقشتها وتفنيدها بنظرة موضوعية هادئة ، تعزز منطقها بالدليل .

وقد حدد الدكتور عبد المحسن هذه المزالق التي وقع فيها الدارسون والنقاد بأن « كثيرا من الابحاث التي كتبت عن نجيب محفوظ كانت في الاصل مقالات كتبت في المجلات والصحف ، وتتناول زاوية واحدة خاصة ، وتخضع للتناول السريع والنظرات الجزئية » (ص ٧) . ولأن نجيب محفوظ يحتلّ مكان الصدارة في مجال أدبنا الروائي ، اندفعت التيارات السياسية المختلفة « الى تبنيه وادعائه كجزء من صراعها السياسي . وبعد أن عانى نجيب محفوظ في بداية حياته فترة طويلة من التجاهل (سائر سنوات الثلاثينات ومعظم سنوات الاربعينات) ، ثم تعرض للرفض باعتباره معبرا عن البورجوازية ، أصبح الآن يتبنى من أغلب الاتجاهات التي تمتد من أقصى اليمين الى اقصى اليسار . فنحن نلتقي به عند باحث وقد صوّره كاتب الاشتراكية الاول الذي وقف حياته وانتاجه للدفاع عنها ، كما نلتقي به عند باحث آخر وقد أصبح كاتب الاسلامية والروحية . وواضح أن كتاب هذه الابحاث لا يبحثون ادب نجيب محفوظ وابداعه . بقدر ما يبحثون عن فكرهم مفروضا على نجيب محفوظ وأدبه . ولا تفرض على نجيب وأدبه التيارات السياسية وحدها ، ولكن أدبه يتخذ أيضا حقلا للتجارب ، لمختلف المذاهب النقدية في صورتها المتفرقة ، ويصبح هدف الدراسة ومنطقها اثبات مذهب الباحث قبل دراسة ابداع الكاتب . كما يتعرض نجيب وأدبه لكثير من محاولات استعراض عضلات الكتاب الذين يهدفون الى اثبات ذواتهم ، وتسديد أسهمهم الى هدف يستحق أن يتسابق المتبارون الى اصابته » .

ثم يقول الدكتور عبد المحسن : « نتيجة لهذا كله فان أحكاما عامة تلبي تصورات كثير من الباحثين والدارسين عممت على نجيب محفوظ وأدبه . بحيث أصبح مثلا رائدا للوطنية والتقدمية ابتداء من رواية « عبث الاقدار » ومرورا بكل انتاجه . وأجبرت روايات الكاتب على الخضوع لهذه التصورات ، فاذا كتب نجيب محفوظ عملا لا يبدو ولا يريد أن يخضع للتصور الذي فرضه الناقد والدارس على الاديب ، ضاق بنجيب وأدبه ، وبدأ يخلع عنه ثوب الريادة الذي ادعاه له في البداية ، بل تحول الى زجره ، لانه عجز عن الدخول في الاطار الذي فرضه عليه » (ص ٨) .

وهذه المزالق التي وقع فيها الباحثون والنقاد ، يرى الدكتور عبد المحسن ، ان نجيب محفوظ نفسه قد ساعدهم على الوقوع فيها « وذلك نتيجة لما كرره اكثر من مرة ، من ان لكل ناقد الحرية في أن يحكم على أدبه كما يحلو له » ولأن « أديبنا الكبير لا يتصدى للرد على ناقد ، الا اذا اتخذ هذا الناقد موقفا مضادا منه ومن أدبه » ، « فهو مثلا لا يجد مانعا من أن يجعل الدارسون من كل انتاجه الادبي من بدايته الى نهايته .. محاولة لمقاومة الاستعمار والدعوة الى الاشتراكية ، بل يساهم بنفسه أحيانا في بعض أحاديثه في تأكيد هذا المعنى » (ص ٨) .

وكذلك ترجع أهمية كتاب الدكتور عبد المحسن « نجيب محفوظ : الرؤية والأداة » الى جدته وجديته ، فقد حدد المؤلف أهدافه من كتابه ، وأفصح بأقوى منطق وبيان عن منهجه . وعلى طريق الهدف والمنهج طرح الدكتور عبد المحسن عدة تساؤلات لتكون دراسته اجابة عنها .

أما الهدف من الكتاب ، فهو « محاولة لتبين مسار تطور الرواية العربية الحديثة في مصر .. بعد الحرب العالمية الثانية » من خلال « انتاج الاديب الكبير نجيب محفوظ .. فهو أغزر كتاب الرواية واكثرهم تنوعا في أدبنا العربي ، وتنوع انتاجه لا يقتصر على مضمون هذا الانتاج فقط ، ولكنه يمتد ليشمل أدوات التعبير في هذا الانتاج ايضا » . وهو أيضا « محاولة تحديد الصلة بصورة دقيقة بين رؤية الاديب للحياة والانسان وبين الاثر الادبي الذي يبدعه » . وقد اختار المؤلف نجيبا وادبه مجالا لهذه المحاولة ، لانه يعتقد ان « رؤية الاديب للحياة والانسان عامل مؤثر لا في اختيار الاديب لموضوع العملَ الادبي ومضمونه فحسب ، ولكنها تشكل ايضا عاملا حاسما في تحديد وفرض أدوات التعبير التي يعبّر بها الاديب عن مضمون عمله الادبي » . وحتى يبلغ المؤلف غايته من دراسته ، طرح في مقدمته عدة أسئلة ، ليحاول أن يجيب عليها أو على بعضها : « هل لنجيب محفوظ رؤية متكاملة للحياة والانسان ، أم انه يصدر في انتاجه الادبي عن مواقف في الكون والحياة قد تنفصل انفصالا كاملا أو تتضارب من رواية الى رواية ؟ واذا كان لنجيب مثل هذه الرؤية : فهل هي رؤية أصيلة ، أم رؤية سطحية وتقليدية ؟ وما هي العناصر الثابتة والمتغيرة في هذه الرؤية ؟ وهل تغطي هذه الرؤية كل أعماله الابداعية من بدايتها الى نهايتها ؟ أم ان الكاتب مرّ بفترة كان يظن فيها ان للادب وظيفة أخرى غير التعبير عن رؤية صاحبه للكون والحياة ؟.. وما أثر الثابت والمتغير في رؤية نجيب محفوظ على بناء روايته وتطور أدوات تعبيره ؟ » .

ويعترف الدكتور عبد المحسن ، بصعوبة معالجة هذه الفروض في سائر انتاج نجيب محفوظ ، بصورة علمية دقيقة ، ولذلك جزأ دراسته الى ثلاثة أجزاء ، هذا الكتاب هو الجزء الاول منها ، ويتجاوز بفهارسه خمسمائة صفحة ، جهد فيها ليرصد الثابت والمتغير في رؤية نجيب محفوظ ، من خلال مقالات نجيب الفلسفية الاولى التي كتبها في الثلاثينات وحتى عام ١٩٤٥ وبلغت عدتها سبعة وأربعين مقالا ، وقصصه القصيرة الاولى التي نشرت في مجلات : السياسة ، المجلة الجديدة ، الرواية ، الرسالة ، مجلتي ، الثقافة ، الساعة ١٢ ، كليوباترا ، ولم تنشر بعد في كتاب . وقد كتب نجيب هذه القصص في الفترة نفسها التي كتبت فيها مقالاته ،

وبلغ عدد هذه القصص خمسين قصة ، ثم من خلال مجموعة نجيب القصصية : « همس الجنون » ، وبواكير انتاجه الروائي . وتشمل هذه البواكير روايات : عبث الاقدار ، رادوبيس ، كفاح طيبة ، القاهرة الجديدة (فضيحة في القاهرة) ، خان الخليلي ، زقاق المدق ، السراب ، ثم اخيرا بداية ونهاية (١٩٤٩) التي بلغ بها نجيب ، كما يقول المؤلف ، نضجه الفني .

بحثا عن رؤية نجيب ، وعن علاقة هذه الرؤية بادواته الفنية في قصصه القصيرة وروواياته الاولى ، قسم الدكتور عبد المحسن الجزء الاول من ثلاثيته عن نجيب الى خمسة أبواب : جذور الرؤية والبدايات الفنية (المقالات ، همس الجنون ، قصص الدوريات) ، والرؤية الوهمية (عبث الاقدار ، رادوبيس) ، الصلة بالواقع (كفاح طيبة ، القاهرة الجديدة) ، نحو الواقعية (خان الخليلي ، السراب) ، الواقعية (زقاق المدق ، بداية ونهاية) .

قد تكون العناوين والتقسيمات غير ذات أهمية بالنسبة للمعطيات الحقيقية التي قدمها عبد المحسن في كتابه ، بل فلننقل بالنظر الى الاكتشافات التي قدمها لنا عبد المحسن ، في دراسته ، بموضوعية ودقة وصبر ، لتحليلَ نجيب ، وفكره ، وفنه ، أو ، فلنقلها على مضض ، لتشريحه بمبضع جراح . وأول هذه الاكتشافات هي العناصر الثابتة في رؤية نجيب محفوظ ، وهذه تكشف عنها « مقالات نجيب الاولى التي تمتد على مدى خمسة عشر عاما ، وتبدأ بمقال : احتضار معتقدات ، وتولد معتقدات ، الذي نشر في المجلة الجديدة في اكتوبر ١٩٣٠ ، وانتهاء بمقالته : القصة عند العقاد ، التي نشرت بمجلة الرسالة في أغسطس ١٩٤٥ » . وثانية هذه الاكتشافات العناصر المتغيرة في رؤية نجيب ، وهذه قد ترك الدكتور عبد المحسن مهمة الكشف عنها « لرواياته نفسها » . وثالثة هذه الاكتشافات هي اثر هذه الرؤية النجيبية بالعناصر الثابتة والمتغيرة في أدوات نجيب محفوظ الفنية في قصصه القصيرة التي لم تنشر في كتب ، والتي نشرت في كتب ، وفي روايات البواكير الاولى ، لغة وأسلوبا ، وبناء ووسائلْ قص . ورابعة هذه الاكتشافات هي تتبع المنابع الاولى لروايات نجيب محفوظ في أقاصيصه التي لم تنشر ، والتي رصد الدكتور عبد المحسن عدة قصص منها كانت حكاياتها هي النواة الاولى ، أو الملخص الاقصوصي لروايات تالية ، كما رصد بعضا من صور ومواقف وتعابير هذه الاقاصيص التي لم تنشر ، وتكررت في روايات نجيب فيما بعد . وهذه المعطيات والمكتشفات على صعيد الرؤية والفن القصصي تكفي في حد ذاتها لتجعل من كتاب عبد المحسن : « نجيب محفوظ : الرؤية والأداة » واحدا من أندر الكتب واقيمها التي

عرفتها الثقافة العربية في السنوات الاخيرة .

يبرر المؤلف اهتماماته بمقالات نجيب ، لكشف جذور الرؤية الثابتة فيها بتبرير يحتاج حقا الى المناقشة : « الذي يدفعنا الى الاهتمام بهذه المقالات ان المؤلف كتبها في بداية شبابه (وهو في العشرين) ، واستمر يكتبها حتى وصل الى مرحلة الرجولة (في منتصف العقد الثالث من عمره) . وهذه الفترة من حياة الانسان هي فترة تكوينه لقيمه الاجتماعية والثقافية (الا يمكن أن تكون قبل هذه الفترة أو بعدها، كما يمكن أن تكون فيها ؟!!) التي تعمق وتنضج في الفترات التالية من عمره ، ومن النادر أن تتحول بعد هذه الفترة تحولا جذريا (لماذا يقرر المؤلف ان ذلك من النادر ، وخاصة اننا في دول نامية ، تهب عليها رياح الفكر من كل صوب ، لا سيما وان نجيب يعيش حياته كلها في عاصمة العواصم العربية سياسيا وثقافيا ؟) . يجيب عبد المحسن مكملا ، ومجيبا في الوقت نفسه عن اعتراضينا : « حين يحدث هذا التحول ، ونادرا ما يحدث ، فانه يكون نتيجة لتراكمات لا بد أن تكشف عن نفسها بصورة أو بأخرى في هذه الفترة » (ص ٣٩) . ومن الواضح ان الدكتور عبد المحسن ، لم يجد في هذه الفترة التي كتب فيها نجيب مقالاته وقصصه في روايات ، ما يشير الى تحول ما في مستقبل فكر نجيب ، يجعل ثوابته تتغير ، أو تستبدل بثوابت اخرى . ان مناقشة هذه القضية امر شاق غاية المشقة لمن يريد أن يدافع عن نجيب ، فعليه أن يبذل جهدا مماثلا لجهد المؤلف ، فيراجع مقالاته ، عساه يعثر فيها على بذور ما للتحول ، لم يلتفت اليها الدكتور عبد المحسن ، ويراجع قصصه ومقالاته ، عساه أن يكتشف فيها ان ثوابت المقالات ليست ثوابت القصص دائما ، على الاقل بعد مرحلة البواكير . وحتى ذلك الحين ليس لنا سوى أن نتأمل باهتمام هذه الثوابت في الرؤية النجيبية التي استخلصها لنا الدكتور عبد المحسن ، من مقالات نجيب .

لقد اكتشف المؤلف من مقالات نجيب ، انه لم يقف مع التقدم ، والعدل الاجتماعي ، وان نجيبا يعتقد بأن « حياة البشر محكوم عليها بالتطور والتغير دائما ، ولكنه حين يعترف بهذا التغير والتطور يعترف به كشر لا بد منه ، ولو ترك الامر له لاختار الثبات والاستقرار بدلا من القلق والتغير » (ص ٤١) . الانسان عند نجيب : « انسان مؤمن بطبيعته ، فالايمان أشبه بحاجة غريزية بالنسبة للانسان . فالانسان الذي يشترك في نصفه المادي مع الحيوان يتميز عنه بنصفه الروحي الذي لا يمتلىء الا بالايمان ، والافضل للانسان أن يكون ايمانه ايمانا دينيا ، فاذا لم يتوفر هذا الايمان الديني فلا بد له من ايمان بديل يسلم اليه نفسه وفكره » (ص ٤٣) .

وهذان التسليمان من نجيب قاداه الى « رفض الشيوعية التي ترى في التغير سعيا دائما نحو الافضل ، وتؤمن بالثورة الجذرية ، وبالعنف الثوري وسيلة لهذه الثورة » (ص ٤٣) . ويختار نجيب محفوظ الاشتراكية ويتنبأ بانتصارها « لانها ترضي السواد الاعظم ، ولا ينفر منها المتدينون ، ولانها تمثل الوسط المحمود بين الشيوعية والرأسمالية » (ص ٤٣) . ومستقبل الانسان في رأي نجيب « مستقبل مظلم ، وكأنه محكوم عليه بالشقاء الابدي ، والمعاناة المستمرة . ولن تحل الاشتراكية مشاكل الانسان لانها تحل بعض حاجاته المادية ، ولكنها لا تحل مشاكل الجانب الاهم والارقى في الانسان والمتمثل في خلاص نفسه ، وانقاذ روحه . ولأن الاشتراكية دنيوية لا أخروية ، فسينفض عنها الكثير من أتباعها لانها ستعجز عن تحقيق وعودها كاملة . والكمال في الدنيا ضرب من المستحيلات ، وحتى لو خاب أملنا في الاشتراكية فهي أفضل من حياتنا الحاضرة » (ص ٤٤) .

ونجيب : كتب بعد ربع قرن من دعوة قاسم أمين الى تحرير المرأة . معبرا عن انزعاجه من ان « المرأة ستشغل الوظائف العامة ، بنسبة مساوية للرجل . فيعلن ان اليوم الذي تتحقق فيه هذه الظاهرة بعيد جدا . وان مثل هذا الموضوع ليس مطروحا للمناقشة الا من باب الافتراض المحض . واذا افترضنا وقوع هذا المحظور ، واصبح من النساء النائبة والوزيرة ، فستكون النتيجة الايجابية الوحيدة لهذه الظاهرة ، ان المرأة سيتغير مركزها في الاسرة من عبء على أبيها الى مصدر رزق ، وتتغير نظرتها للزواج ، وتتهيأ لها فرصة اختيار الرجل المناسب . أما النتائج السلبية التي ستترتب على مثل هذا الوضع الخطر ، فأهمها ان سعادة الزوجين تتعرض دائما لما يكدر صفوها ، وفي هذا الجور المظلم يجد الزوجان آلاف الاسباب المبررة للطلاق ، ثم يفقد الزواج قدسيته ، ويصبح عهده من البساطة بحيث يمكن حنثه ، وكأنه ميعاد لا أهمية له . أما الكارثة الاخيرة (في شغل المرأة للوظائف العامة) فتنبع من ندرة الوظائف بالنسبة للشباب في عصر نجيب محفوظ ، وكأنهم ينقصهم منافسة الفتيات أيضا ، فينتج عن منافسة الفتيات للفتيان : ازدياد التعطل بين الشباب ، نتيجة لمزاحمة الفتيات لهم ، وفي هذه الحالة يصبحون خطرا على المجتمع » (ص ٤٥ ــ ٤٦).

وتكشف مقالات نجيب الفلسفية « عن نفوره من الفلسفة المادية ، وترحيبه الى حد الغزل بما يسميه بالفلسفة الروحية » فهي تعتبر النفس عالما زاخرا بعيد الغور نحس فيه بحريتنا ، ونعرف بداهة ان هذه الحرية غير متناهية ، أما الفلسفة المادية فترى النفس كما يعد ويحسب ، وتخضع النفس لقوانين محددة خضوع

الظاهرات الطبيعية لنواميسها » (ص ٤٦) . ويحتل برجسون مكان الصدارة في ما يسميه نجيب بالفلسفة الروحية ، و « يقدمه نجيب كثيرا على غيره من الفلاسفة » ، « ويفرد له المقالات » ، و « صوته هو الصوت الاخير في الحكم النهائي » ، و « أقواله مضرب المثل » ، « وقد وجد نجيب في فلسفة برجسون تعقيدا للثنائية التقليدية بين الجسم والنفس ، وبين الجسد والشعور ، وبين المادة والروح » . ويسيطر عرض برجسون لهذه الثنائية المتناقضة والمتعادية على كثير من افكار نجيب » ، و « تبدو أساسا لكثير من آرائه ، التي تتصل بالمذاهب الفلسفية المختلفة ، أو بتصوره للبشر ، وحكمه على سلوكهم » (ص ٤٦ ــ ٤٧) . ونجيب يرى في استعراضه لتطور الفلسفة ان « العقل البشري قد تخلص شيئا فشيئا من المادة في تفسيره لأصل الكون المادي الظاهر ، وسما في التفسيرات المعنوية التي لا تدرك الا بالعقل » ، وعظمة سقراط ترجع الى « رفضه للمظاهر المادية للكون ، واعتماده كله على التأمل العقلي » (ص ٤٨) ، الذي يجهل أو يتجاهل المظاهر الخارجية ، كما ترجع هذه العظمة في سقراط الى اعتقاده ان الاخلاق « تنبع من المعرفة والعقل » (ص ٤٩) . وعظمة افلاطون ترجع عند نجيب « الى تفرغه للفلسفة ، وعزوفه عن النشاط السياسي » والى فهمه ان الافعال نتيجة للمعرفة التي هي نتيجة بدورها للافكار » (ص ٤٩) . و « لا يكتفي (نجيب) بالاشادة بالفلسفة المثالية ، وبرفض الفلسفة المادية ، ولا يكتفي بدعوتنا الى التأمل العقلي ، ورفض المنهج التجريبي ، ولكنه يدعونا الى ما يسميه بالفلسفة الروحية التي لا تعتمد على العقل البحت ، ولكنها تعتمد أيضا على الشعور والاحساس ، ولا تنكر الاخلاق والضمير مما لا تقوم له قائمة الا بمعونة احساس الانسان وتقديره الذاتي » (ص ٤٩) . ونجيب « لا يؤمن بثنائية الجسد الهابط والروح المتسامية ويقف عند هذا الحد ، فعالم الروح نفسه ينقسم عنده مرة أخرى الى عالمين هما عالم العقل ، ثم عالم القلب الذي يمثل أسمى ما في الانسان . ولم يتحمس نجيب في عرضه للبراهين المختلفة على وجود الله بجانب حماسه لتجربة التصوف الا لبرهان آخر سماه البرهان الاخلاقي ؛ لانه ينبع من القلب والشعور ، وهي نفس المنابع التي تنبع منها تجربة الصوفية » (ص ٥٤) .

والحب عند نجيب محفوظ « غابة كثيفة لا يستطيع التوغل فيها فيلجأ الى وصفها بألفاظ غامضة شاعرية » والحب عنده « أنواع : أسماها وأرفعها حب الله ، ثم حب الملائكة ، ثم حب الانسان فالحيوان .. والحب الذي تختاره الشخصية هو مفتاح فهمنا لهذه الشخصية وسرها . فالحب على هذا مفتاح سحري نستطيع أن نلج به مغلق النفوس » (ص ٥٥ ــ ٥٦) .

وكان نجيب متعاطفا فكريا مع حزب الوفد ، « ولكنه لا يمارس السياسة العملية ، ولكنه يفاجئنا عام ١٩٤٣ بثلاث مقالات كتبها تأييدا لحزب الوفد وبعض زعمائه ، وهي تجربة لم تتكرر في حياته في هذه الفترة وما بعدها ، حتى نكسة ١٩٦٧ » ، وفي المقال الثالث منها « يهاجم نجيب الشيوعية بعنف ، رافضا ديكتاتوريتها ، واعتمادها على الثورة والعنف ، معلنا ان الاشتراكية التي يريدها لا بد أن تتحقق بأسلوب الاصلاح النيابي ، وبلا عنف ، وبتعبير آخر ، فهو يطلب اشتراكية تتحقق مع الحرية الكاملة ، وتتم بالحوار والاقناع . (يقول نجيب) : ينبغي أن يفرّق الكتاب بين ديكتاتورية الشيوعية ، والاشتراكية الديمقراطية !! فالشيوعية لتوسلها بالثورة تحمي نفسها بالديكتاتورية، ولا تسمح بالوجود الا لحزب واحد ، ورأي واحد ، وتمحو ما يخالفهما من الاحزاب والآراء ، فيرسف الفكر في دولتها بالاغلال . أما الاشتراكية فلا تعرف الثورة ولا الديكتاتورية (؟!) » (ص ٥٩) .

والمقالات التي كتبها نجيب في الفن والادب تتسم بسمة « الميل الى المحافظة ، ومحاكمة الادباء اخلاقيا اكثر من محاكمتهم فنيا ، ثم اعتبار عالم الادب والفن عالما سماويا ، يجب أن يظلّ بعيدا عن العالم المادي الارضي الدنس » ، فالفن عنده : « هو التعبير عن العاطفة وهو تعريف واف من حيث انه لا يميلَ الى مذهب من مذاهب الفن خاصة ، ولا يجنح الى فلسفة من فلسفاته دون غيرها » (المجلة الجديدة ، ١٩٣٦) . ووظيفة الفن : « أن يسمو بالانسان الى سماوات الجمال، وأن يلتقي بوجدان الفرد مع وجدان الجماعة الانسانية في شعور واحد ، وأن يسلك شخصية الانسان في وحدة عامة تضم اليها أعماق الارض وطبقات السماء (!!) وهو لن يؤدي مهمته اكملَ الأداء ، ما لم يؤاخ بين نفسه ، وبين العلم والفلسفة (؟!) » (المجلة الجديدة ١٩٣٦) . وشذوذ الفنانين يرجع الى : « تغلب ملكة الخيال عليهم ، مما يحصرهم في عالم غير هذا العالم الذي نعيش فيه ، ويجعلّ منهم غرباء عنا ، كما يجعلّ منا غرباء عنهم » (السياسة ١٩٣٣) . و « يبدو ذوقَ نجيب في تذوقَ الموسيقى والغناء اقرب الى الذوقَ المحافظ ، فهو يجعلَ أم كلثوم في سماء لا يرقى اليها احد . وكلّ مطربة مثـلّ أسمهان وليلى مراد بالقياس اليها تراب يريد ان يقارن نفسه بالسماء » (ص ٦٠) . وزعيم الموسيقيين المعاصرين ، هو « دون منازع : زكريا احمد ، لانه خالق ومبدع واصيلّ ، أما عبد الوهاب فمقتبس » (ص ٦٠) . وحين يعرض نجيب للكتاب الاوروبيين وأعمالهم « فهو لا يقدم تقييما لاعمالهم ولكنه يعرض للاعمال ملخصا أحداثها بدقة ، ثم يحاكم تاريخ حياة الكاتب اخلاقيا ، معتمدا على « اخلاص الكاتب لفنه .. ومدى ايمانه » ، فتشنيكوف ، عاش في الفترة

الاولى من حياته « جحيم الكاتب ، لانه لم يكن متفرغا لفنه ، وفاقدا فيها لايمانه ، أما الفترة الثانية فكانت جنّته ، لانه تفرغ للفن ، وعاد اليه نوع من الايمان » (ص ٦١) . وحين عرض نجيب لمسرحية « الخال فانيا » ، كانت « الصفة الفنية الوحيدة التي وصف بها المسرحية ، هي انها من رواياته المسرحية الناجحة » (ص ٦١) . وحين عرض لمسرحية « عمد المجتمع » (لأبسن) ، كان تعليقه على موضوعها « ان المكر السيىء سيحيق بأهله » ، وكانت الغاية التي اكتشفها نجيب في هذه المسرحية هي : « النقد والاصلاح » ، وكان تعليقه الفني عليها انها « في أسلوبها وغايتها آية بينة على أسلوب ابسن » (ص ٦٢ — ٦٣) . ولم يصف نجيب في مقال له عن فن موليير الا بجملة واحدة هي : « كان أكبر مصور لاخلاق الانسان فيعصره » (ص٦٣) . والعقاد عند نجيب « رجل البداهة ، وروح النهضة الادبية » ، أما طه حسين « فأدبه ادب العقل والبساطة والسخرية والشك » . أما سلامة موسى « فهو ارادة النهضة الادبية ، وتفكيره عملي ، وشاغله الاصلاح الاجتماعي ، والادب عنده وسيلة لا غاية » (ص ٦٥) . ولا يلبث نجيب أن يهاجم العقاد في مقال آخر دفاعا عن فن الرواية ، مشككا في « قدرة العقاد على المفاضلة الادبية ، وفي منطقية مثل هذه المفاضلة وجدواها » (ص ٦٦ — ٦٧) .

نجيب محفوظ اذن ، في مقالاته على الاقل ، هو ، عند الدكتور عبد المحسن ، مفكر مثالي « يعتقد ان الكائن البشري ذو طبيعتين متناقضتين متعاديتين ، احداهما حيوانية جسدية هابطة ومدانة ، والاخرى روحية سامية علوية وصاعدة ، وتسجن الاولى منهما الثانية في سجن الغريزة والضرورة والحاجاتالمادية » . والمفكر المثالي « محكوم عليه بأن يرى البشر ويرى نفسه في صور مغرقة فيالتشاؤم والسوداوية » (ص ٦٨) . « والطريق الوحيد للخلاص الذي تطرحه رؤية نجيب محفوظ ، هو طريق القلة الناجية من البشر ، هو محاولة قهر الجانب المادي الحيواني الغريزي في الانسان ، والذي لا ينتهي به الا الى الكارثة . ليس حتما ان تصل هذه القلة الناجية الى غايتها ، قد تتشابه امامها الدروب ، وقد تضلّ « الطريق » وقد « تشحذ » . ولكن لها على الاقل فضيلة المحاولة » . و « يتحدد على ضوء هذه الرؤية تصور نجيب محفوظ للانسان ، ودوافعه للفعل ، ثم حكمه وتقييمه لهذا الفعل ، كما يتحدد على ضوئه أيضا جحيم نجيبوجنته » (ص ٦٩) . و « القلة الناجية مراتب ودرجات » أدناها من يكتفي بضبط حاجاته المادية والسيطرة عليها ، وأوسطها « من يسمو بنفسه ، ويعتنق مبدأ يعيش به وله » ، وأعلاها : « من يستطيع أن يضحي بكل حاجاته الغريزية والمادية في سبيل المبدأ الذي يعتنقه » ، وكلما احتلت المبادىء مرتبة العقيدة كانت منزلتها أسمى وأرفع » (ص ٧٠) . و « من هذا المنطلق يصبح لرفض نجيب للشيوعية مبررا » : « فهي تقدم المادة على الفكر ، وحاجات الانسان المادية على حاجاته الروحية ، بل انها تضحي بالحاجات الروحية في سبيل الحاجات المادية ، ووسيلتها للاقناع والتطبيق هي العنف الثوري وليس الاقناع الفكري ، وهي لا تتعاطف مع الدين ولا تشجعه، وتلجأ الى ديكتاتورية الطبقة بدلا من الاصلاح النيابي » . و « يصبح غاية ما يمكن أن يقتنع به نجيب في هذا المجال ، هو نوع من العدالة الاجتماعية ، تتحقق بالعلم والايمان » (ص ٧١) . و « مثل هذه الرؤية لا تحمل أملا في خلاص الانسان ، ولا حلما بالخلاص . والاديب الذي يكتب بمثل هذه الرؤية ، لا ينتظر منه أن يعيد تشكيل الواقع ، ليكشف عن رؤية جديدة للانسان وللواقع ، وغاية ما يمكن أن يقدمه هو الوقوف عند حدود تصوير الواقع الذي يراد في صورة مأساة كاملة ومستمرة » (ص ٧٢) .

هل ظلت رؤية نجيب هذه ، في مقالاته ، ثابتة ومستمرة ؟ لقد تحدث نجيب كثيرا بعد المقالات عن فكره وأدبه ، كما كتب عنهما كثير من الدارسين ، « وفي كثير مما كتب تبدو العناصر المحورية في رؤية نجيب ثابتة ومستمرة . ولم يحدث في فكره ورؤيته انقلاب جذري ، يؤدي الى التغير من النقيض الى النقيض . وكل ما حدث ان رؤيته ازدادت عمقا . وان فكره أصبح أكثر نضجا ومنطقية ، وتنبه أديبنا أكثر فأكثر الى العوامل الانسانية التي تساهم في قهر البشر ، وتشكيل مصائرهم ، كما تنبه الى تداخل أكثر من عامل واحد ، في تحديد مصير الشخصية الانسانية » (ص ٧٢) . « والقليل من الباحثين هو الذي سأل نفسه : هل يسلم نجيب بالتطور والتغير . ويريده ويسعد به ، أم انه يسلم به كشر لا بد منه ؟ » . « ويمكن رؤية الآثار المدمرة للتطور والتغير في رؤية نجيب من تناول أي رواية من رواياته سواء أكانت بداية ونهاية ، أو ميرامار ، أو الكرنك ، أو تحت المطر . فسنكتشف ان مرور الزمن ، وتطور شخصيات الابطال ليس له الا معنى واحد ، هو : اقترابهم من الهاوية والمأساة أكثر فأكثر ، وانهيار ما كان بريئا وصلبا ومتماسكا ، ونظيفا في شخصياتهم . وقد تختلف أسبابالمأساة ، ولكن النهاية دائما واحدة ومتشابهة » . و « ما زال نجيب يؤمن بأن ما يتصل بالمادة ارضي منفر، وما يتصل بالروح سام وفوقي ، فسيدات الطبقةالعاملة ارضيات ، وسيدات الطبقة الارستقراطية جديرات بالاعجاب (لقاء بين المؤلف ونجيب سنة ١٩٧٦) » (ص ٧٣) . وما زال موقف نجيب من الشيوعية والاشتراكية « لا تنازل فيه ولا مساومة » : رفض للديكتاتورية وللفلسفة المادية ، ولموقف الشيوعية من

الدين، بل زاد عليه تنبؤه بمصير الانسانية في المستقبل: « أعتقد ان المستقبل هو التوفيق بين الاشتراكية والعقيدة الدينية » ، « الوسط هو قدر منطقة الشرق الاوسط وسبيلها » (الآداب ، مارس ٦٢ ويوليو ٧٣) . ويعتبر نجيب ، في رأي الدكتور عبد المحسن ، « أول من نادى بشعار العلم والايمان في مجتمعنا » وتاريخه السياسي يمكن تلخيصه بأنه : « بدأ وطنيا مصريا متعاطفا مع جناح حزب الوفد اليساري ، ثم تحول الى التعاطف مع المطالب التي نادت بها ثورة يوليو ، مع نفوره من الاساليب التي اتبعتها في التطبيق ، ليجد نفسه مخلصا متعاطفا مع شعارات حزب مصر العربي (الآن الحزب الوطني) » (ص٧٦) . و « ما زال الصراع بين العلم والادب والفلسفة مستمرا في نفس نجيب محفوظ » (الكاتب ، مارس ١٩٦٦) . و « ما زال نجيب ينظر الى الفن والادب باعتبارهما رسالة حياة » ، و « قد سمح لنفسه ابتداء من سنة ١٩٤٥ بكتابة عدد كبير من الافلام تخضع للمقاييس الهابطة للسينما المصرية .. وتعتمد أفلامه كثيرا على المصادفة ، ولا تخلو من الميلودراما ، وتميزها نهايات غير سعيدة » . واستمر « ذوق نجيب محفوظ الادبي والفني أميل الى المحافظة ، شديد النفور من التيارات المعاصرة في الادب الاوروبي ، ويبدو معجبا بالمشاهير من أدباء الواقعية النقدية ذوي النزعة الانسانية الشاملة ، أو الصوفية ، نافرا من الادباء الملتزمين ، واشد نفورا من الاتجاهات الادبية المعاصرة » (ص ٧٨) .

لم نتجاوز بعد في قراءتنا لكتاب الدكتور عبد المحسن بدر « نجيب محفوظ : الرؤية والأداة » سوى مقدمته والفصل الاول من الباب الاول في كتابه المدهش . ولم نتجاوز بعد عرض جذور الرؤية ، أو الثوابت في فكر نجيب محفوظ كما كشفت عنه مقالاته. وأكدتها مواقف نجيب وآراؤه بعد الحرب العالمية الثانية. وكان يمكن في تقديري دعمها بالمزيد من المواقف والآراء التي كتبها نجيب أو أدلى بها ، منذ مايو ١٩٧١ حتى الآن . ويبقى الكثير مما يمكن أن يقال هنا ، عن تأثير هذه الثوابت في روايات نجيب ، مضامين ومواقف وأدوات فنية ، وعن المتغيرات في رؤية نجيب كما تكشف عنها هذه الروايات ، وعن مدى الاتساق بين رؤية نجيب وأدواته القصصية ، وعن مدى كلاسيكيته ، وتقليديته ، ورومانسيته ، وواقعيته ، على الاقل حتى الرواية التي انتهت معها هذه الدراسة الخطيرة في جزئها الاول . وعن مدى تأثير قصص نجيب التي لم تجمع في كتاب ، في موضوعات رواياته ، وصورها ومواقفها وتعابيرها . ولطول العرض ، حتى دون تعليق أي تعليق ، نؤثر التوقف عند أهم وأحدث ما قدمته هذه الدراسة عن نجيب محفوظ المفكر ، وراء نجيب محفوظ الفنان .

البعض من الدارسين والنقاد ، يؤثر « التعامل مع النص الادبي » ، دون التوقف عند دلالاته وأهميته الفكرية . بل قد يرفض رفضا قاطعا مجرد محاولة الربط بين فكر الكاتب ، وعمله الادبي ، في دراسة أو نقد ، فضلا عن استقراء العمل الادبي لما يمكن أن يقوله من آراء ، فهم يرون ان بعض الاردياء فكرا ، ممتازون فنا ، وانه ليس من المحتم أن يكون التقليدي في فكره تقليديا في فنه . وعندئذ فالمنهج الذي سار فيه الدكتور عبد المحسن مرفوض كلية من هؤلاء ، لكن هذا الرفض اعتقد انه سيتعرض الآن لاهتزاز كبير . فهذه الدراسة مليئة بالشواهد والادلة والملاحظات والاستقراءات ، وربط الافكار في المقالات والاحاديث ، بالافكار في الروايات والاقاصيص ، في تناغم واتساق.

هذا المقال السريع دعوة لقراء « الآداب » لقراءة كتاب الدكتور عبد المحسن عن نجيب محفوظ ، وسوف يشعرون مثلي الآن بحاجة شديدة الى معاودة قراءة نجيب من جديد . فلأول مرة يمكن للقارىء أن يتجاوز هذا الحد الفاصل في المخيلة بين العمل الادبي ومبدعه : هذه المنطقة الفراغ .

القاهرة

صدر حديثا :

الانسان وقواه الخفية

تاليف كولن ولسن

ترجمة سامي خشبة

دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للوصول الى ما وراء الحاضر

منشورات دار الآداب